تجليات الحضور الصوفي عند أبي الحسن الششتري

في نماذج مختارة من شعره

Manifestations of the sufi presence according to Abu Al-Hasan Al-Shushtari inselected poetic models

ط د/ أمال زعامطة* أ. د حميد قبايلي

جامعة أم البواقي (الجزائر) جامعة أم البواقي (الجزائر)

مخبر تعليمية اللغة العربية والنص الأدبي الواقع والمأمول جامعة أم البواقي

amel.zaamta@univ-oeb.dz hamidkebaili1961@gmail.com

تاريخ الارسال : 2022/09/09	تاريخ التقييم : 2023/09/08	تاريخ القبول : 2023/12/30

الملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية لتسليط الضوء على أهم قطب من أقطاب التصوف في الأندلس عامة وفي القرن السابع الهجري خاصة؛ وهو أبو الحسن الششتري (ت 668هـ) الصوفي الفذّ الذي استطاع بنظرته الفلسفية العميقة أن يجعل نفسه من كبار متصوفة العصر متأثرا فيها بكبار شيوخ الصوفية من أمثال محي الدين بن عربي وابن سبعين اللذين كان لهما الأثر الواضح في تكوين شخصيته، كما تهدف الدراسة إلى إبراز ثقافة الشاعر الصوفية ومدى تأثيرها في الشعر الصوفي الأندلسي وكذا أهم الإضافات التي ساهم بها الششتري في إثراء الشعر الصوفي الأندلسي من خلال دراسة نماذج من أشعاره الصوفية.

كلمات مفتاحية: التصوف؛ أبو الحسن الششتري؛ الأندلس.

Abstrac:

This research paper seeks to shed light on the most important poles of Sufism in Andalusia in general and in the seventh century AH in particular. He is Abu al-Hasan al-Shushtari (d. 668 AH), an outstanding mystic who, with his deep philosophical outlook, was able to make himself one of the great Sufis of the age, influenced by the great Sufi sheikhs such as Muhyiddin Ibn Arabi and Ibn Sabeen, who had a clear impact on the formation of his personality. The study also aims to highlight the culture of The Sufi poet and its impact on the Andalusia Sufi poetry,

as well as the most important additions that Al-Shushtari contributed to enriching Andalusia Sufi poetry by studying examples of his Sufi poems.

Keywords: Sufism; Abu al-Hasan al-Shushtari; Andalusia.

*المؤلف المراسل.

1. مقدمة:

عرف العصر الأندلسي ظهور حركات دينية وسياسية واجتماعية ساهمت في تطور العصر من الناحية الفكرية والثقافية ما أسهم في ظهور تيارات فكرية مختلفة، ومنها تيار التصوف الذي ظهر مع بدايات القرن الثاني الهجري كحركة زهدية تدعو إلى ترك الملذات الدنيوية والانشغال بطاعة الله، ومع تطور العصر وزيادة رفاهية المجتمع الأندلسي الذي أدى إلى شيوع المجون والانحلال الأخلاقي تطورت الحركية الزهدية لتكتسب ملامح صوفية جديّة.

كان التصوف عبارة عن المرآة التي تعكس الحياة الإسلامية والروحية للعصر لأنه كان يستقي مبادئه وقواعده من الكتب الدينية، ومع توافد الثقافات على بلاد الأندلس بدأ التأثر بها يظهر تدريجيا إلى أن طال مجال التصوف فطغى عليه البعد الفلسفي وتشكلت بذلك نظريات فلسفية صوفية أُلّف فيها الكثير من قبل علماء كبار من أمثال محي الدين بن عربي وابن سبعين وتلميذهما أبي الحسن الششتري.

يعد الششتري (ت 668هـ) من الشعراء الأندلسيين الذين برزوا في مجال التصوف في القرن السابع الهجري، تأثر بكبار علماء الصوفية وأخذ عنهم الكثير ما جعله يتسم بثقافته الواسعة في الدين والفلسفة والتصوف، وقد كان لنشأته وطريقة تعلمه الأثر في ذلك، ف نجد أن الششتري تأثر بمختلف الطرق الصوفية التي عُرفت في عصره ،وهذا ما يظهر في ديوانه الشعري الذي يعد ثروة شعرية هامة في مجال التصوف والذي عبّر فيه عن أفكاره الفلسفية العميقة بإبداع وإتقان، مستخدما القوالب الشعرية القديمة والمستحدثة، وقد حاولنا في هذا البحث التركيز على نماذج شعرية من القوالب المستحدثة، ومن هنا انطلقت الدراسة من إشكالية مفادها:

-كيف تجلى الحضور الصوفي في أشعار الششتري؟

-وما هي الإضافات التي ساهمت بها التجربة الشعرية الصوفية عند الششتري؟

تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على التجربة الشعرية الصوفية لأبي الحسن الششتري في القرن السابع الهجري متخذين بعض أشعاره نماذج للدراسة ، وفي محاولة أيضا لإبراز أهم المواضيع التي طرحها الشاعر من خلالها وتبيان مدى أثر هذه التجربة الصوفية في إثراء الشعر الصوفي الأندلسي.

2. التصوف في الأندلس:

تمت عملية تطور الفكر الفلسفي في الأندلس عبر مراحل بدأت مع دخول الشق العلمي من الفلسفة عبر علوم الطب والرياضيات وغيرهما، لهذا نجد أن الفلاسفة الأوائل في الأندلس كان أغلبهم علماء، ومع تزايد دخول الكتب الفلسفية والثقافة اليونانية للأندلس واحتكاك الأندلسيين بالمفكرين في المشرق العربي جراء الرحلات المتبادلة سواء الرحلات الثقافية أ م رحلات الحج، بدأت بذلك الإرهاصات الأولى لتطور الثقافة الأندلسية، وفي أواخر القرن العاشر ميلادي ظهر المفكر الأندلسي "محمد بن مسرة الجبلي (ت319ه)" والذي يعدّ "أول من نقل الزهد في الأندلس من الدائرة الفردية إلى دائرة الجماعة مكونا بذلك المنطلق الأساس للمدرسة الصوفية الفلسفية الأندلسية، التي ستستمر في الظهور والانتشار بعد ذل ك"[1]، وهو من المفكرين والفلاسفة المتصوفين الأندلسيين سافر إلى المشرق العربي للتجارة والحج فأخذ عنهم بعض الآراء والأفكار الفلسفية وقام بنقلها للأندلس، أما "عن مذهب ابن مسرة الصوفي الباطني، أجمع كثير من الباحثين القدماء والمحدثين على تأثره الشديد بالفلسفة المنسوبة إلى إمبذوقليس"[2] وهو فيلسوف يوناني عاش في فترة سقراط، وتعد جهود ابن مسرة بمثابة الانطلاقة الفعلية للتصوف في الأندلس.

تميز التصوف الأندلسي في بدايته بإنشاء الرباطات الصغيرة التي كان يجتمع بها بعض الأفراد من النساك من أجل التأمل مقلدين في ذلك بعض النساك الأفارقة، وفي أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري ازدهر التصوف وظهر في طابع تأملي عقلي ووجداني خالص، فبدأت بذلك معالم المدرسة الصوفية الجديدة في التشكل وقد انطلقت من مظهرين أساسيين، الأول تمثل في اتحاد الصوفية واجتماعهم في أماكن خاصة منعزلة للعبادة والتأمل، أما الثاني فتمثل في بدء اصطدامهم مع الفقهاء الذي حاولوا الحفاظ على صفاء الدين حتى لا

يختلط مع معتقداتهم[3]، وقد شكل هذا التصادم بين المتصوفين والفقهاء بداية نشأة الفكر الصوفي واكتسابه لملامح جدية.

أما في القرن الخامس الهجري ظهرت في الساحة الثقافية بالأندلس أفكار التصوف علانية وظهرت من خلالها ما كان كامنا في القرنيين السابقين بأسلوب اصطلاحي مستخدمين في ذلك الرمز كوسيلة للتعبير، وقد كان التصوف في هذه الفترة ما يزال يحمل الملامح الإشراقية في أفكاره[4]، وقد واصلت الحركة الصوفية في التطور والازدهار خاصة في القرنين السادس والسابع الهجريين فقد تميزا بظهور علماء وشعراء متصوفين كبار منحوا التصوف هيكلة شبه تامة أمثال أبو العباس بن العريف وأبو مدين شعيب وغيرهما، إلّا أن "أشهر شاعرين أندلسيين في الشعر الصوفي هما محي الدين بن عربي الطائي، وأبو الحسن الششتري، وإليهما يرجع الفضل في استخدام الموشحات والأزجال أداتي تعبير عن مجالات التصوف ومعانيه وأذواقه" [5]، وبهذا كان لهما الفضل في إدخال التصوف لهذين الفنين المستحدثين .

وقد شهد هذا العصر انقسام المتصوفة إلى فريقين، فريق التزم الاعتدال في توجهه الصوفي متبعين في ذلك ما انتهى إليه الزهد وأهم من مثّل هذا الاتجاه نجد ابن العريف وأب و مدين شعيب، وفريق آخر مزج بين الفلسفة الأفلاطونية المحدثة مع الذوق الإشراقي، فنجد منهم من جهر بالوحدة والاتحاد والفناء وغيرهما ومنهم من صرح ولمّح إليها فقط، وقد مثل هذا الفريق كل من محي الدين بن عربي وعبد الحق بن سبعين وتلميذهما أبي الحسن الششتري [6]، وقد كان لكل فريق منهما مؤيد ومعارض للأفكار التي يطرحها.

كما اشتهر تصوف القرن السابع الهجري بميزتين أساسيتين الأولى أن أغلب متصوفي هذا العصر كانوا علماء في الدين ولهم نظرة شاملة للقرآن الكريم و ثقافة واسعة في الفقه والحديث، كما نجد أن بعضهم كان متمكنا من الفلسفة والعلوم الشرعية والفنون الأدبية خاصة الشعر، أما الميزة الثانية هي أن هذا العصر شهد الصراعات القائمة بين المتصوفين ذوي النزعة الفلسفية وبين الفقهاء وقد كانت هذه السمة التي شكلت وطوّرت الفكر الصوفي في الغرب الإسلامي[7]، وربما تعد هـ اتين الميزتين من أهم ما جعل التصوف في هذا العصر يكتسب طابعا من العمق في الفكر والدقة في التفسير والتحليل.

ويمكن القول: إن التصوف في الأندلس صنف إلى ثلاث فئات هي[8]:

1- التصوف السني: وهو تصوف ملتزم بآداب الشرع ويرفض كل نزعة فلسفية أو اعتزالية أو شيعية أو شعبية –على الأقل في الظاهر- إنه تصوف موافق لإيديولوجية الحاكمين بالغرب الإسلامي.

2- التيار الصوفي ذو النزعة الفلسفية: وهو تصوف تأثر عبر نشأته وتطوره بالكثير من الآراء الاعتزالية والشيعية والفلسفية على مختلف مشاربها أرسطية مشائية وأفلاطونية محدثة.

3- التصوف الشعبي الطرقي: هو الذي أصبح سلوكا جمعيا له نظم وقواعد ورسوم خاصة، وله شيخ يعرف باسم الشيخ المؤسس.

كما ساهمت العديد من الأسباب في انتشار تيار التصوف في الأندلس وتوسعه ، ومن هذه الأسباب نذكر:

- الترف والدعة والحياة الماجنة التي كان يعيشها أهل البطالة والمجون على اختلاف أهوائهم ورجالاتهم[9]، وهذا ما أدى إلى ظهور حركة مناهضة لحركة المجون ومعادية لها.
- إضافة إلى ما عرفته المنطقة من سطوة الفقهاء وسيطرتهم المطلقة على الميدان الديني والدنيوي جعلت من ظهور المتصوفة ونضج قضاياهم الذوقية والروحية بمثابة تمرد سياسي وديني.
- وكذا نضج الفكر الفلسفي الأندلسي ودوره في طبع التصوف بطابع ثيوصوفي إشراقي يعتمد على المصطلح الفلسفي المتميز[10].

3. ترجمة أبي الحسن الششتري:

هو علي بن عبد الله النميري الششتري، وصف بالشيخ الفقيه والصالح العابد والأديب المتجرد[11] يكنى بأبي الحسن، ولد سنة 610هـ[12] الموافق لـ 1212م، والششتري نسبة لبلد بالأندلس يقال لها "شُشْتَر"[13]، قضى الششتري حياته في ظل الدولة الموحدية التي تعد أعظم إمبراطورية إسلامية عرفها التاريخ، وقد كان ينتمي إلى أسرة ذات جاه ومال ما جعله يقضي مدة شبابه الأولى في السفر والتجول في المدن الأندلسية[14]، عمل بالتجارة وكان يجول بين الأمصار وبتحل إلى بلدان عدة من المشرق والمغرب.

يعد أبو الحسن الششتري عالما بطريقة الصوفي ين المتأخرين مع تجرد ونظم، وله رحلة وتواليف[15]، بدأ توجهه الصوفي بعد التقائه بأبي مدين شعيب (ت594هـ) وبعد ذلك التقى بعبد

الحق بن سبعين في بجاية، وقد كانت هذه الانطلاقة الأولى للششتري في سلك طريق الصوفية حتى أصبح أحد أهم أعلامها.

1.3 أساتذة الششتري وشيوخه:

تعرَّف الششتري خلال حياته على مجموعة من أ علام وشيوخ الصوفية منهم من أخذ عنهم بطريقة غير مباشرة ونذكر منهم "ابن مسرة الجبلي" الذي يعد رائد الحركة الصوفية في الأندلس، فتأثر بفكره الفلسفي وطريقته واستفاد من آرائه وحكمته، ومن أساتذته المباشرين نذكر: السرهودي (ت 588ه)، عبد الحق بن سبعين (ت 668ه)، ابن سراقة (ت 662ه)، أبو مدين الغوث (ت 601ه)، ومحي الدين بن عربي (ت 632ه)[16] وغيرهم.

2.3 تلامذته:

تأثر عدد كبير من العلماء الصوفيين اللاحقين بطريقة الششتري ومنهم من نقل عنه مباشرة ونذكر منهم "أبو الحسن بن هلال"، ومنهم غير المباشرين والذي انتشروا في جميع البقاع منهم: أبو العباس الغبريني (ت 704ه)، وعلي بن أحمد المعروف بابن المحروق (ت 709ه)، وعبد الله بن عباد الرندي (ت 792ه)[17]، وغيرهم الكثير والدليل على ذلك عدد المريدين الذين كانوا يرافقونه في رحلاته، وقد تأثر كل منهم بطريقته الخاصة فنجد من نظم على طريقة أبي الحسن ومنهم من ترجم له ترجمة تفيض بالتأثر والإعجاب.

3.3 وفاته:

مات الششتري بالطينة في ساحل دمياط في السابع عشر صفر سنة 668ه قبل شيخه ابن سبعين بنحو الثمانية أشهر[18].

4.3مؤلفاته:

ترك الششتري ثروة أدبية كبيرة في النثر والنظم منها ما عُثر عليه وحُقق ومنها ما لم يعثر عليه، ومن الكتب النثرية نجد: "الرسالة العلمية"، و "المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية"، و "الرسالة البغدادية"، ومن عناوين الكتب التي لم يعثر عليها نجد: "العروة الوثقى في بيان السنن"، و "إحصاء العلوم"، "المراتب الإسلامية والإيمانية والإحسانية" [19]، ومن الآثار الشعرية نجد الديوان الذي تركه الششتري وضم فيه عددا لا بأس به من القصائد العمودية وعددا كبيرا من الموشحات والأزجال الصوفية التي برع الشاعر في نظمها.

4. النزعة الصوفية عند أبي الحسن الششتري:

يعدّ أبو الحسن الششتري من كبار المتصوفة في الأندلس في القرن السابع الهجري والذي مثّل أهم التيارات الصوفية فيه، كانت متأثرا في انطلاقته بأفكار شيوخه خاصة "ابن عربي" و "ابن سبعين" اللذان شكّلا شخصيته الصوفية من خلال اتباع منهجهم في التصوف، وما لبث حتى أصبح أحد أهم أقطاب التصوف في الأندلس نظرا للطريقة التي اتبعها في منهجه حيث مزج بين الذوق الصوفي والفكر الفلسفي، وقد جاء هذا نتيجة للتأثر "بكل التيارات التي عرفتها الساحة الثقافية بالأندلس وغيره من البلاد التي زارها"[20]، فساعده تنقله في بداية شبابه أثناء الانشغال بالتجارة إلى جمع العلوم والثقافات من مختلف المشارب.

كان لرحلات الششتري الأثر الواضح في بداية توجهه الصوفي فنجد أنه حضر في إحدى رحلاته إلى بجاية "حلقة المدينية –أتباع أبي مدين الصوفي المشهور- وهناك لزم مجلس القاضي محي الدين بن سراقة، أحد تلامذة السرهودي صاحب عوارف المعارف، وأخذ عنه التصوف وقد أثرت المدينية على الششتري في بدء حياته الصوفية أثرا كبيرا" [21]، وقد ظهر هذا التأثر في العديد من أشعاره.

حافظ الششتري على توجهه في الطريقة المدينية إلى غاية اللقاء الذي غيّر توجهه وجعله "يتجه بكليته نحو التصوف الفلسفي، وأن يعتنق مذهب وحدة الوجود في صورته العارية"[22]، وهذا هو مذهب شيخه ابن سبعين الذي التقاه في رحلة له في بجاية فخاطبه قائلا: " إن كنت تريد الجنة فسر إلى أبي مدين وإن كنت تريد ربّ الجنة فهلمّ إليّ" [23]، فاختار أبو الحسن طريق ربّ الجنة وسار مع ابن سبعين في طريقته وطلب منه أن يكون تلميذا له، ومع أن الششتري "كان وزيرا وعالما فقد طلب عبد الحق بن سبعين منه أن يمسك علما ويدور في الأسواق متغنيا"[24] هذا البيت:

بديت بذكر الحبيب   وعيـــشي يطيـب[25]

لم يستطع أبو الحسن أن يضيف شيئا للبيت الذي أعطاه شيخه إياه إلا بعد ثلاثة أيام من التجول، فأنشد قائلا:

لـما دار الكـاس   مـا بين الجـلاس

عنهم زال الباس

سقاهم بكاس الرضا   عفا الله عمّا مضى[26]

وبعد ذلك رحل الششتري إلى مصر ونزل بالقاهرة واعتكف بجامع الأزهر الشريف، وقد تبعه عدد من المريدين كانوا يتبعونه أين ما حلّ، وفي ذلك الوقت ذاع صيت أبي الحسن الشاذلي الذي يعد من أهم الشيوخ الصوفيين، لم تذكر المراجع أي لقاء جمع بينه وبين أبي الحسن الششتري إلا أنه اعتبر "فيما بعد شاذليا واحتل مكانا في سلسلة رجال الطريقة"[27].

ومن الطرق الصوفية التي اتبعها الششتري أيضا الأكبرية وهي طريقة أتباع الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي الحاتمي الطائي، الذي يعدّ من أهم تلاميذ الشيخ أبي مدين شعيب، وقد جعله الششتري "حلقة بارزة في سلسلة شيوخه"[28] وقد ذكره الششتري في نونيته الشهيرة.

وقد كانت هذه أهم المحطات التي شكلت شخصية الششتري الصوفية وساهمت في بناء ثقافته التي كانت "متعددة المكونات كما كانت معرفته بثقافة عصره جيدة وبروادها وثيقة، وقد عمل بكل ما أوتي من وضوح في الرؤية وبساطة ودقة التعبير عن أغوص المعاني الصوفية والفلسفية، في استخدامه ما استوعبه من تلك الثقافة في بناء مذهبه الصوفي" [29]، وقد ظهر هذا بينا واضحا في ديوان الششتري الذي وضع فيه خلاصة تجربته الصوفية وقدم لنا أشعارا صوفية لا مثيل لها.

1.4 الموشحات والأزجال الصوفية عند أبي الحسن الششتري:

تعد الموشحات والأزجال من الفنون الشعرية المستحدثة التي ظهرت في الأندلس ولقيت رواجا فيها نظرا لتناسبها مع البيئة الأندلسية، فقد تغنى الشعراء الأندلسيون بجمال الأندلس وطبيعتها الخلابة باستخدام الموشحات والأزجال التي كان وقعها خفيفا على الأذن من جهة وأنها من الفنون الغنائية من جهة أخرى.

يعد الموشح لوْنا من ألوان النظم "ظهر بالأندلس في عهد الدولة المروانية في القرن التاسع الميلادي، ويختلف عن غيره في ألوان النظم بالتزامه قواعد معينة من حيث التقفية وخروجه أحيانا عن الأعاريض الخليل ية، وخلوه أحيانا من الوزن الشعري باستعماله اللغة الدارجة والعجمية في بعض أجزائه، وباتصاله الوثيق بالغناء" [30]، وهذا يفسر سبب شيوعه في الأندلس لأنه يتناسب والبيئة الغنائية فيها. وقد تعددت أغراض الموشحات منها ما نُظم في وصف الطبيعة ومنها في المدح والهجاء والغزل ووصف الخمر ومنها ما عُني بالكتابة في الأغراض الدينية كالزهد والتصوف.

ظهر التصوف في الموشحات الأندلسية كرد فعل طبيعي لانتشار الترف والمجون في الأندلس، "فقد طرق باب الموشحات لأول مرة في عصر الموحدين، ونظم فيه كبار المتصوفة، وهما ابن عربي والششتري، وقد أبدع كلاهما في هذا الفن واستطاعا أن يعبرا من خلاله عن أراءهما الصوفية، وأشواقهما تعبيرا صادقا" [31]، وقد ظهر هذا في الموشحات التي نظمها الششتري، والتي اختلفت مواضيعها الصوفية، نجد من أهم المسائل الصوفية التي عرض لها الششتري في موشحاته مسألة الفناء، يقول الششتري[32]:

أنفي ما رأيت أنفي ما رأيت

من حوادث الأيام تبقى إن فنيت

أنا عندما نفنى نبقى في شهود

دايما نرى المعنى ساري في الوجود

ندعو دعوة المضنى عندما نعود

يعبر الششتري في هذا الموشح عن قضية الفناء التي تجعل من العبد لا يرى في الوجود ولا يعي فيه إلا الله، أي تغييب الذات من أجل الوصول إلى المحبوب والفناء وفيه، وفي الموشح السابق تحدث الششتري عن الفناء عن وجود السوى وهو آخر درجة من درجات الفناء الثلاث، ويعني أن "تكون فيه غاية العارفين والسالكين، الفناء في الوحدة المطلقة، والإقرار بأن ما تم غير الله وذلك بنفي التعدد والتكثر عن الوجود بكل اعتبار" [33] ، وقد أكد عن توجهه في هذا الموشح مؤكدا أن الفناء عن وجود السوى هو الذي يحقق المعرفة الحقيقية بالله.

ويقول أيضا[34]:

فخل هو وهيا واترك لزيد وميا وطب واعشق بنيا

فالفاني يفنى وتبقى حياتي

ولا تفارق حياتي صفاتي

فذاتي كلّي- وكلي ذاتي

وفي هذا المقطع يؤكد الششتري عن حديثه السابق عن الفناء عن وجود السوى ونفي التعدد والتكثر عن الوجود.

ويقول في موشح آخر[35]:

لولا أني علمت   أن من يفنى يبقى   عني ما كنت غبت

إن موتي وحياتي   وفنائي بقا

وبمحو صفاتي   طاب لي الملتقى

وانجمعت بذاتي   وألفت التقى

يرى الششتري هنا بأن الفناء الكلي مع النفس يحقق الوحدة مع الله.

ومن المسائل الصوفية التي تطرق إليها الششتري في موشحاته نجد قضية الحب الإلهي، يقول في موشحه[36]:

فسر الحب رباني   ومعناه غريب

أنا نهواه ويهواني   نناجيه من قريب

إذا نخلو بمحبوبي   نغيب عن الوجود

ونقرا سر مكتوبي في صورة العقود

وبه يحلالي مشروبي   وبه نجني الورود

يدخل هذا الموشح ضمن ظاهرة الحب الإلهي الذي يعني الإعراض عن الجمال الفاني الذي ينتهي بمجرد موت الجسم والإقبال على الجمال المعنوي الذي يستمر الحب فيه ولا ينتهي أبدا، لأنه متعلق بالأبدي السرمدي أي السمو من حب الموجود إلى حب المُوجِد ومن حب المخلوق إلى حب الخالق [37]، وهذا هو المعنى الذي أراد الششتري الوصول إليه من خلال موشحه وهي الفناء في حب محبوبه وهو الله وهو حب خال من أي منفعة خاصة.

تعددت المواضيع الصوفية التي تطرقت إليها الموشحات الصوفية منها ما تعلق بالمعرفة الصوفية ومنها ما تحدث فيه الششتري عن الدين الحقيقي والشريعة وعن وحدة الوجود، وقد حاول الششتري معالجة هذه القضايا الصوفية الكبرى متبعا في ذلك الطريقة الششترية والدفاع عن نظرته لها.

ومع شيوع فن التوشيح في الأندلس وميول الناس إليه ظهر فن مواز له "نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا في ه إعرابا واستحدثوا فنا سموه الزجل والتزموا النظم فيه على مناحيهم لهذا العهد، فجاءوا فيه

بالغرائب واتسع فيه للبلاغة بحسب لغتهم المستعجمة"[38]، وبهذا كان الزجل أقرب للهجة الناس فنظموا فيه الكثير.

وقد دخل التصوف مجال الأزجال مع دخوله لفن التوشيح ويعد الششتري الرائد فيه؛ حيث "نجح في استعمال الزجل في التصوف، وفي النفاذ به إلى قلوب العامة، كما استطاع أن يصور لنا صورا واقعية للحياة البسيطة، التي يعيشها الصوفي مما ظهر على أزجاله لون خاص لم يظهر في الشعر الصوفي" [39]، وربما أهم سبب لميل الششتري لهذا الفن هو أنه قريب من العامة لهذا استطاع التقرب من قلوبهمونقل لهم نظرته الصوفية وجسّد فيه فكره وتوجهه في صورة بسيطة خالية من التعقيد.

ومن خلال الاطلاع على ديوان أبي الحسن يمكن ملاحظة أن الأزجال كان لها حضور طاغ فيه "فتكاد تصل إلى المائة وهو عدد كبير، إذا قورن بشعره الصوفي الذي لا يتجاوز إحدى وأربعين قصيدة، مما يدل على غلبة روح الزجل عليه أكثر من الشعر" [40]، فكما "كان لابن عربي السبق في استخدام الموشح لأغراض التصوف، كان لأبي الحسن الششتري فضل السبق في إدخال الزجل إلى عالم التصوف"[41]، وقد مال الششتري لتوظيف هذا الفن بكثرة لشيوعه لدى العامة من الناس واستحسانهم له.

عالج الششتري من خلال أزجاله العديد من المواضيع الصوفية المختلفة ومن ذلك طرحه لفكرة تهيئة الباطن من أجل تلقي الحقائق، يقول الششتري في أحد أزجاله[42]:

دعونا نمروا بالجسد   فالقلب راحل   لطي المراحل

فأول علمنا

تركنا لجسمنا

ورانا وعمنا

وصرنا ندور في الأبد   والغير زايل   وما ثم حايل

ولما قطعنا

جسمنا ارتفعنا

ومعقولنا معنا

وفي هذا المقطع نجد أن الششتري يدعو إلى التجرد من الشيء الفاني ألا وهو الجسد لأنه يفنى بمجرد الموت، ويرى بأن أول مرحلة للتطهير هو ترك الجسم الزائل والتوجه إلى ما هو أسمى من ذلك والذي يبقى دائم الوجود، وبمجرد الإعراض عن الزائل سيرتفع العبد ويسمو وبهذا يجهز باطنه ويعدّه من أجل تلقي الحقائق.

ومن المواضيع التي ناقشها الششتري في أزجاله أيضا قضية وحدة الوجود يقول[43] :

اسمع يا نفسي كلام وهو كلامك فكرك وصوتك كما الأحرف نظامك

لس ثم غيرك، عن الوجود يترجم

-صوره كلّه عندك- وفيك هو ما ثم

فأنت علمك، وطور منك فيك، فاعلم

فاتبع لأقصى ما فيك، فهو إمامك

وحدة الوجود هي من القضايا التي شغلت اهتمام المتصوفة ومن بينهم الششتري فقد نظم فيها في موشحاته وأزجاله، ومن ذلك المقطع السابق الذي عبّر فيه الش اعر عن بعض نواحي نظرية الوجود وبأن الوجود يعدّ واحدا كما تعد النفس وحدة واحدة لا تعدد ولا انقسام فيها، والوجود "في أصله حقيقة واحدة، هي وحدة الحق والخلق إذا نظر إليهما من جهة الأحدية فهي الحق، أو نظر إليها من جهة التعدد، فهي الخلق، فالحق والخلق وجهان لحقيقة واحدة وهما اسمان لمسمى واحد" [44]، ويعد هذا المفهوم الأقرب لوحدة الوجود أي أن الخلق والحق واحد وفي هذا السياق يقول الششتري[45]:

بلا شك تدروا باش أنا متهوم

يا ترى أيش ذا من هو ذا أو ذا

ردّ ذي مع ذا لس تجد مقسوم

أنا هو لولا أن نكن أعلا

وفي المفهوم نفسه لوحدة الوجود يقول في إحدى أزجاله[46]:

ردّ الوجود واحد وأنت ذاك

وليس عليك زايد وما ثم سواك

كن للسوى جاحد مهما أتاك

عالج الششتري العديد من المواضيع الصوفية المختلفة في أزجاله مثل قضية الحب الإلهي وقضية الفناء، كما استعمل الششتري العديد من المصطلحات الصوفية مثل السكر والخمرة والشراب والكأس بكثرة في موشحاته وأزجاله، واستعان أبو الحسن بالرموز الصوفية المختلفة مثل توظيفه لرمز المرأة كرمز للوجود الكلي، وتوظيف رمز الخمرة التي ترمز إلى المعرفة الذوقية وغيرها.

5. خاتمة:

يعدّ التصوف من أبرز الاتجاهات الدينية التي انتشرت في الأندلس ولقيت إقبالا واسعا عليه خاصة من القرنين السادس والسابع الهجريين مع ظهور كبار أئمة التصوف في الأندلس، من أمثال ابن سبعين وابن عربي وأبي الحسن الششتري.

يعد الششتري من أبرز المتصوفة الأندلسيين في القرن السابع الهجري نظرا للطريقة التي اتبعها في التصوف من جهة ولثقافته الواسع ة من جهة أخرى؛ حيث استقى مذهبه الصوفي انطلاقا من التأثر بالعديد من الطرائق الصوفية مثل تأثره بالمدينية في بدايات توجهه الصوفي، وكذا الطريقة الأكبرية بقيادة شيخه ابن عربي والطريقة الشاذلية والسبعينية لينتج بعد ذلك طريقته الششترية الخاصة التي امتازت بالعمق ووضعت لنفسها مكانا بين كبرى الطرائق الصوفية وجعلت لها عددا كبيرا من المريدين.

نُظم الشعر الصوفي في قالب القصيدة العمودية ثم نقل إلى القوالب الجديدة حتى يتناسب وذوق العامة، ومن ذلك نجد الموشحات والأزجال التي اتخذت منحى التصوف حتى تكون بمثابة الرد الديني على الموشحات والأزجال التي نُظمت في الأغراض الدنيوية، ويعدّ ابن عربي أول من نقل التصوف لفن الموشح كما يعد أبو الحسن الششتري أول من نقل التصوف لفن الزجل وبذلك يمكن اعتباره الرائد فيه.

عرض أبو الحسن الششتري تجربته الشعرية الصوفية في موشحاته وأزجاله من خلال عرض مختلف النظريات الصوفية مثل قضية الفناء التي يرى بأنها هي الحقيقة التي تعقب حقيقتي الحياة والبقاء، وكذا قضية الحب الإلهي الذي يرى فيه الششتري أن على الم ريد أن يعرض عن كل ما هو زائل وأن يتوجه إلى حب الخالق الذي يعد الحب الدائم حتى بعد الفناء،

كما تحدث أبو الحسن عن وحدة الوجود والذي يرى فيه بأن الحق والخلق وجهان لحقيقة واحدة ولا يمكن أن يكونا غير ذلك، وأثناء توظيف الششتري لهذه النظريات استخدم العديد من المصطلحات والرموز الصوفية التي ساعدته في نقل توجهاته الصوفية.

الهوامش:

---

[1]- بومدين كروم، (2011م)، أبو الحسن الششتري الصوفي الجوال حياته وشعره، دار التوفيقية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 4،3.

[2]- الإدريسي العدلوني محمد، (2005م)، أبو الحسن الششتري وفلسفته الصوفية، دار الثقافة، المغرب، ص 34.

[3]- ينظر: البختي علال جمال، (1426ه/2005م)، الحضر الصوفي في الأندلس والمغرب إلى حدود القرن السابع الهجري، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ص 11، 12.

[4]- ينظر: الإدريسي العدلوني محمد، (2005م)، أبو الحسن الششتري وفلسفته الصوفية، ص 39.

[5]- بومدين كروم، (2011م)، أبو الحسن الششتري الصوفي الجوال حياته وشعره، ص 10.

[6]- ينظر: المرجع نفسه، ص 6.

[7]- ينظر: الإدريسي العدلوني محمد، (2005م)، أبو الحسن الششتري وفلسفته الصوفية، ص 26، 27.

[8]- ينظر: المرجع نفسه، ص 26.

[9]- عبد الفتاح محيسن فاطمة ابراهيم، (2010م)، أثر التصوف في عصر بني الأحمر، قسم اللغة العربية، الجامعة الأردنية، الأردن، ص 27.

[10]- ينظر: الإدريسي العدلوني محمد، (2005م)، أبو الحسن الششتري وفلسفته الصوفية، ص 40.

[11]- الغبريني أبو العباس، (1979م)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، لبنان، ص 239.

[12]- بومدين كروم، (2011م)، أبو الحسن الششتري الصوفي الجوال حياته وشعره، ص 16.

[13]- العسقلاني أحمد بن علي بن حجر، (1323ه/2006م)، لسان الميزان، ج5، تح: عبد الفتاح أبو غدّة، دار البشائر الإسلامية، لبنان، ص 558.

[14]- ينظر: الإدريسي العدلوني محمد، (2005م)، أبو الحسن الششتري وفلسفته الصوفية، ص 15-18.

[15]- العسقلاني أحمد بن علي بن حجر، (1323ه/2006م)، لسان الميزان، ص 558.

[1616]- الإدريسي العدلوني محمد، (2005م)، أبو الحسن الششتري وفلسفته الصوفية، ص 70 وما بعدها.

[17]- ينظر: بومدين كروم، (2011م)، أبو الحسن الششتري الصوفي الجوال حياته وشعره، ص 23.

[18]- العسقلاني أحمد بن علي بن حجر، (1323ه/2006م)، لسان الميزان، ص 558.

[19]- ينظر: الششتري أبو الحسن، (1960م)، ديوان أبي الحسن الششتري شاعر الصوفية الكبير في الأندلس والمغرب، تح: علي سامي النشار، منشأة المعارف، مصر، ص 13، 14.

[20]- علوان فوزية، (2006م)، التصوف الفلسفي عند أبي الحسن الششتري (الخمرية الششترية) أنموذجا، مجلة المعيار، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، مج 21، ع 41، 392-417، ص 396.

[21]- الششتري أبو الحسن، (1960م)، ديوان أبي الحسن الششتري شاعر الصوفية الكبير في الأندلس والمغرب، ص 8.

[22]- المصدر نفسه، ص 8.
[23]- الإدريسي العدلوني محمد، (2005م)، أبو الحسن الششتري وفلسفته الصوفية، ص 87.
[24]- زيدان يوسف، (1996م)، شعراء الصوفية المجهولون، دار الجيل، لبنان، ص 63.
[25]- الششتري أبو الحسن، (1960م)، ديوان أبي الحسن الششتري شاعر الصوفية الكبير في الأندلس والمغرب، ، ص 9.
[26]- المصدر نفسه، ص 9.
[27]- المصدر نفسه، ص 11.
[28]- بومدين كروم، (2011م)، أبو الحسن الششتري الصوفي الجوال حياته وشعره، ص 34.
[29]- الإدريسي العدلوني محمد، (2005م)، أبو الحسن الششتري وفلسفته الصوفية، ص 79.
[30]- عوض الكريم مصطفى، (1974م)، فن التوشيح، دار الثقافة، ص 17.
[31]- نميش أسماء، (2016/2015م)، الموشحات والأزجال وأثرها في الأدب الأوروبي القديم: شعر التروبادور أنموذجا، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة جيلالي ليابس، الجزائر، ص 92.
[32]- الديوان، ص 104.
[33]- الإدريسي العدلوني محمد، (2005م)، أبو الحسن الششتري وفلسفته الصوفية، ص 246.
[34]- الديوان، ص 87.
[35]- المصدر نفسه، ص 102.
[36]- المصدر نفسه، ص 95.
[37]- ينظر: الحلواني أحمد، (1947م)، الإيمان والروح، مطبعة القاهرة، مصر، ص 27، 28.
[38]- ابن خلدون، (1847)، المقدمة، طبعة كالزمير، فرنسا، ص 778. ج2
[39]- نميش أسماء، (2016/2015م)، الموشحات والأزجال وأثرها في الأدب الأوروبي القديم: شعر التروبادور أنموذجا، ص 147.
[40]- عيسى سعيد فوزي، (2007م)، الموشحات والأزجال الأندلسية، دار الوفاء للنشر والتوزيع، مصر، ص 168.
[41]- العربي غرسي، (2012/12011م)، بنية الخطاب الصوفي في شعر أبي الحسن الششتري –دراسة أسلوبية-، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات والعلوم، جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر، ص 26.
[42]- الديوان، ص 208.
[43]- المصدر نفسه، ص 237.
[44]- بومدين كروم، (2011م)، أبو الحسن الششتري الصوفي الجوال حياته وشعره، ص 170.
[45]- الديوان، ص 173.
[46]- المصدر نفسه، ص 299.

قائمة المصادروالمراجع:

- الإدريسي العدلوني محمد، (2005م)، أبو الحسن الششتري وفلسفته الصوفية، دار الثقافة، المغرب.
- البختي علال جمال، (1426هـ/2005م)، الحضر الصوفي في الأندلس والمغرب إلى حدود القرن السابع الهجري، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.
- بومدين كروم، (2011م)، أبو الحسن الششتري الصوفي الجوال حياته وشعره، دار التوفيقية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- الحلواني أحمد، (1947م)، الإيمان والروح، مطبعة القاهرة، مصر.
- ابن خلدون، (1847)، المقدمة، طبعة كالزمير، فرنسا.
- زيدان يوسف، (1996م)، شعراء الصوفية المجهولون، دار الجيل، لبنان.
- الششتري أبو الحسن، (1960م)، ديوان أبي الحسن الششتري شاعر الصوفية الكبير في الأندلس والمغرب، منشأة المعارف، مصر.
- العربي غرسي، (2012/12011م)، بنية الخطاب الصوفي في شعر أبي الحسن الششتري –دراسة أسلوبية-، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات والعلوم، جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر.
- العسقلاني أحمد بن علي بن حجر، (1323هـ/2006م)، لسان الميزان، دار البشائر الإسلامية، لبنان.
- علوان فوزية، (2006م)، التصوف الفلسفي عند أبي الحسن الششتري (الخمرية الششترية) أنموذجا، مجلة المعيار، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، مج 21، ع 41، 392-417.
- عوض الكريم مصطفى، (1974م)، فن التوشيح، دار الثقافة.
- الغبريني أبو العباس، (1979م)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، منشورات دار الآفاق الجديدة، لبنان.
- عبد الفتاح محيسن فاطمة ابراهيم، (2010م)، أثر التصوف في عصر بني الأحمر، قسم اللغة العربية، الجامعة الأردنية، الأردن.
- عيسى سعيد فوزي، (2007م)، الموشحات والأزجال الأندلسية، دار الوفاء للنشر والتوزيع، مصر.
- نميش أسماء، (2016/2015م)، الموشحات والأزجال وأثرها في الأدب الأوروبي القديم: شعر التروبادور أنموذجا، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة جيلالي ليابس، الجزائر.